نظرات في المبادرات الإسلامية

عبد الناصر أبو البصل(*)

هذا المؤتمرُ بذاتِهِ مبادرةٌ من الأزهرِ الشريفِ، ومجلسِ الحكماءِ.. والأزهرُ ومجلسُ الحكماءِ بذاتِهما مبادرتان عربيتان إسلاميَّتان.. أقول: ومسيحيتان أيضًا؛ لأنَّ المسيحيةَ لنا، وهما للمسيحية.

هاتان المؤسَّستان تنتميان للحضارةِ الإسلاميةِ العربيةِ، ولها يعملُ مسيحيو العرب ومسلموها، والشكرُ للأزهرِ ولمصرَ ولمجلسِ الحُكماءِ وللإماراتِ العربيةِ المتحدةِ.

وأستعيرُ أبياتًا من الشِّعرِ لأمير البيانِ الأمير أمين آل ناصر الدين، التي يقول فيها هذا الشاعرُ العظيمُ:

ألا إنني والشكرُ دَينٌ كمُعسرٍ
أرادَ قضاء الدَّيْن في سَنةٍ مَحْلِ
حسبتُ بياني مُسعفًا فدعوتُه
فكنتُ كمَن يدعو إلى البذلِ ذا بُخلِ
عصَتني القَوافي إذ تجلَّتْ لخاطِري
مناقبُكم غُرًّا بواهرَ للعَقلِ
عدَا طاقتي إيفاؤكم حقَّ مدحِكم
فكفَّرتُ عن عَجزي بوقفةِ مُعتَلِ

أغضُّ حياءً ناظِريَّ أمامَكم

كمَن قد أتىٰ ذنبًا فخافَ من العَذلِ

ونحنُ حينما نستشهِد -وهذا من خصائصِ حضارتِنا- نأخذُ من جميعِ المذاهبِ والأديانِ، في مسائلِ اللغةِ والأدبِ والحضارة وكلِّ الأمور، إلَّا في مسألةِ الصلاةِ وأمورِ العقيدةِ فكلٌّ له خصوصيتُه.

أمَّا حديثي اليومَ عن المبادراتِ الإسلاميةِ؛ فأوجزُه في النقاطِ الآتية:

الأمر الأول: المبادرةُ سبقٌ ومصارعةٌ أو اقتراحٌ أو فكرةٌ أو خُطةُ عملٍ يُطلقُها شخصٌ أو مؤسسةٌ أو دولةٌ أو مجموعةٌ ما لحلِّ مشكلةٍ أو قضيةٍ كبرىٰ مجتمَعيةٍ أو عالميةٍ، أو لمواجهةِ خطرٍ ما محدقٍ، تتضمَّن هذه الخُطة والمبادرة مشروعًا يتطلَّب الاستمراريةَ لتحقيقِ أهدافه، وهي غالبًا تعالجُ قضيةً واحدةً وإن تشعَّبت.

الأمر الثاني: المبادراتُ إذا جاءت بخطرٍ في واقعِ الأمرِ متوقَّع، المبادراتُ هي حمايةٌ للتنوُّعِ والحريةِ، وخاصَّةً: المبادراتِ الإسلاميةَ التي أتحدَّث عنها في هذه العُجالةِ.

المبادراتُ الإسلاميةُ جُغرافيًّا صدَرت من أكثرِ من مكانٍ، وأخذت اسمَ العاصمةِ أو الرَّاعي لها أو البلدِ، ولكنَّ أصحابَ الفكرةِ -ابتداءً بالمبادرةِ وأساسًا- هم العلماءُ، أنتم الأزهرُ بالمُفكِّرينِ والعُقلاءِ؛ لأنَّ علماءَ الأمةِ.. علماءَ الأزهرِ، هم الذين صاغوها ونقَّحوها ودَعوا إليها.

المبادرةُ ليست مسألةً يسيرةً، بل تحتاجُ إلىٰ بناءٍ راسخٍ ومُستندٍ إلىٰ الثوابتِ والأصولِ وإلىٰ الثقافةِ والحضارةِ، وإلا لن تجدَ لها أثرًا، وستضيعُ في مَهبِّ الرِّيح.

وهذا من عواملِ نجاحِ المبادرةِ.. علماءُ يجيدون التعاملَ مع القرآن والسنَّةِ؛ لأنَّ مشكلةَ المتطرفِ والغُلاةِ أنهم لا يعرفون منهجيَّةَ التعاملِ مع القرآنِ والسنَّةِ، وهي ضرورةٌ شرعيةٌ ومؤصَّلةٌ ولها مرجعيتها.

أقولُ إذًا.. الحديثُ عن الأزهرِ وحدَه يحتاج إلى مؤتمرٍ مستقلٍّ، وخاصةً شيوخَ وعلماءَ الأزهرِ وما كتبه عمداءُ وأساتذةُ كلياتِ الأزهرِ، وهم الذين حضروا وأكثرهم.. ونحن وإن درَسنا ودرَس أساتذتُنا في الأزهر؛ فالأزهرُ هو المنبعُ، ولذلك ستجدُ بَصَماتِ الأزهرِ التي لا يقومُ بها تفضُّلًا ولا مَنًّا، وإنما يقومُ بها انطلاقًا من الواجبِ الشرعيِّ الذي يعرفُه ويؤمنُ به القائمون عليه، ولهذا أقترحُ ندوةً مستقلةً عن تراثِ شيوخِ الأزهرِ وعطائِهم في التعدُّديةِ والتسامحِ والحوارِ ممَّا كتبوه من رسائلَ وكتبٍ وتراثٍ تدخُل فيها المبادراتُ.

الأمر الثالث: المبادراتُ محلُّ الدراسة

المبادراتُ الإنسانيةُ كثيرةٌ جدًّا، إذا اعتبرنا «العُهدةَ العمريةَ» مبادرةً، وإذا اعتبرنا ما فعله شيخِ الإسلامِ الحنفيِّ علي أفندي سنة (١٥١٨-١٥٢٠م) حينما أرادَ أحدُ السلاطينِ إجبارَ المسيحيين على تركِ دينِهم وإغلاقِ الكنائسِ، وعزمَ على ذلك؛ فبادرَ المفتي الأعظم -وهو شيخُ الإسلامِ- ووقفَ ضدَّ رغبةِ السلطانِ، وأصدرَ فتوى بحُرمةِ ذلك الفِعل؛ فامتنعَ السلطانُ، وتقولُ المصادرُ الأجنبيةُ إنه عَزلَ السلطانَ بفتواه حمايةً للمسيحيين ولأصحابِ الدِّياناتِ الأخرى بظنٍّ ظنَّه ذلك السُّلطانُ.

فالمبادراتُ كثيرةٌ، وسأذكرُ مجموعَ خمسِ مبادراتٍ حسَبَ التاريخِ:

المبادرة الأولى: إعلانُ القاهرة حول حقوقِ الإنسانِ في الإسلامِ، والذي صدرَ عن مؤتمرِ الإنسانِ التاسع عشر لوزراءِ الخارجيةِ بالقاهرةِ سنة (١٩٩٠م)، وأذكرُ مادةً منه: «البشرُ جميعًا أسرةٌ واحدةٌ جمعت بينهم العبوديةُ الإلهيةُ والبنوةُ لآدم، والناسُ جميعًا متساوون في أصلِ الكَرامةِ الإنسانيةِ وفي أَصلِ التكليفِ والمسئولية دون تمييزٍ بينهم في مسائلِ العِرقِ أو اللونِ أو اللغةِ أو الجنسِ أو المعتقَدِ الدِّيني»، ثم نصَّ الإعلانُ أيضًا على عدمِ جواز ممارسةِ أي لونٍ من الإكراهِ واستغلالِ الحُكمِ لحملِ الإنسانِ على تغييرِ دينِهِ.

المبادرة الثانية: «رسالة عمَّان»، صاغها الواقعُ، وتحدَّث عنها الأبُ رفعت بدر أيضًا، وأُطلقت بحضورِ جلالةِ الملكِ عبد اللهِ الثاني بن الحُسين، في الأردن سنة (٢٠٠٤م)، وتحدَّثت عن هذا الموضوعِ بالتحديدِ، وأريدُ أن أنقلَ منها عباراتٍ كثيرة، مثل: «الإنسانيةُ قوامُها وحدةُ الجنسِ البشريِّ»، «إنَّ الناسَ متساوون في الحقوقِ والواجباتِ والسَّلامِ والعَدلِ وتحقيقِ الأمنِ الشَّاملِ، والتكافلِ الاجتماعيِّ، وحُسنِ الجوارِ.. وغيرها، وهي مبادئُ تؤلِّفُ في مجموعها قواسمَ مشتركةً بين أتباعِ الدياناتِ وفئاتِ البشر»؛ ذلك أنَّ أصلَ الدياناتِ واحدٌ، والمسلمُ يؤمنُ بجميعِ الرسلِ، ولا يفرقُ بين أحدٍ منهم، وإنكارُ رسالةِ أيِّ واحدٍ منهم خروجٌ عن الإسلامِ، وهو ما يؤسِّس لإيجادِ قاعدةٍ واسعةٍ للالتقاء مع المؤمنين في الدِّيانات الأخرى لخدمةِ المجتمعِ الإنسانيِّ دونَ مساسٍ بالتميُّزِ

العَقَدي، والاستقلالِ الفِكري، مُستندين في هذا كلِّه إلى قوله سبحانه: **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** [البقرة ٢٨٥].

وبعد صدور «رسالةِ عمَّان» التي تضمَّنت (٢٣) بندًا اتخذها مجمعُ الفقه الإسلاميِّ في دورته الـ(١٧)، وأقرَّها في عمان سنة (٢٠٠٦م)، ودخلت أيضًا البرنامجَ العَشريَّ لوزراءِ الخارجيةِ للدولِ الإسلاميةِ، ولمنظمةِ المؤتمرِ الإسلاميِّ في ذلك الوقتِ -مؤتمر مكَّة- وأُلزمت بها وببنودِها الدولُ الإسلاميةُ جميعها وأقرَّتها.

المبادرة الثالثة: مبادرةُ «كلمة سواء» في ١٣ أكتوبر سنة (٢٠٠٦م)، بحضورِ ١٣٨ عالمًا من علماءِ المُسلمين من أرجاءِ العالمِ، يمثِّلون جميعَ المذاهبِ والمدارسِ الفِكريةِ بروحٍ من التبادلِ الثقافيِّ والتَّفاهمِ، وهي رسالةٌ مفتوحةٌ إلى البابا تحدَّثَ فيها العلماءُ لأوَّلِ مرَّةٍ في التاريخ المُعاصر بصوتٍ واحدٍ حول تعاليمِ الإسلام الحقيقيةِ، التي تتحدَّث عن حُبِّ اللهَّ وحُبِّ الجار.

من ناحية ثانية مؤتمر مكة عام ٢٠٠٨ أقرَّها وأيَّدها، وهناك أكثر من ٦٠٠ مقال حول تأييدها والحديث عنها.

المبادرة الرابعة: مبادرةُ الملك عبد اللهَّ بن عبد العزيز، خادم الحَرمين الشَّريفين رحمهُ الله، للحوارِ بين أَتباعِ الأديانِ، وقد انطلقت من مكةَ المكرَّمة خلال اجتماعِ المؤتمرِ للحوار عام (٢٠٠٨ م)، بحضورِ عددٍ كبيرٍ من علماءِ الأزهر ومُفتي الديار المِصرية في ذلك الوقت، وصدَرَ عنه هذه المبادرةُ التي تشجع ثقافةَ الحوار بين

الأديانِ، ومنها: إنشاءُ مركزِ الملكِ عبد اللهَّ خادم الحرمين الشَّريفين العالمي للحوار في فيينا.

خامسًا: «أسبوعُ الوئام بين الأديان» عام ٢٠١٢، وقد تم إطلاقُ مبادرةِ «أسبوعِ الوئامِ العامِّ بين الأديانِ» أمامَ الجمعيةِ العامَّةِ للأممِ المُتحدةِ، وتمَّ تبني القرار بالإجماعِ، واعتمادُ الأسبوعِ الأول من كل شهر (شباط/ فبراير) أسبوعًا للوئامِ العالمي بين الأَديان، وتشجيع نشرِ رسالةِ الوئامِ في العالمِ وأماكنِ العبادةِ كلٌّ حسَبَ تقاليدِه ومُعتقداتِه الدِّينيةِ.

سادسًا: مبادرة «تعزيز السِّلم»، والتي أطلقها العلَّامةُ الشيخ عبد اللهَّ بن بيَّه عام (٢٠١٤م) في العاصمةِ «أبو ظبي» بدولة الإماراتِ العربيةِ المتحدةِ، وهي وإن كانت مخصَّصة لترتيبِ البيتِ المسلمِ، إلا أن المنتدَىٰ قد تبنَّىٰ مبادراتٍ متعددةً في الحوارِ والسِّلمِ في المجتمعاتِ المُسلمةِ، يشملُ المجتمعات بأَسرِها وتنوّعِها ومُكَوناتِها كافَّة.

وهناك عددٌ من مبادراتِ المراكز، ومنها:

- مركز الوسَطيَّة، الذي صدرت عنه الرسالةُ في سراييفو، وهي من تأليف الدكتور مصطفىٰ، وهو أحد المتخصِّصين فيما نتحدَّث فيه، وهي رسالةٌ موجَّهة لمسلمي أوروبا وللعالم بعد أحداث (١١) سبتمبر.

- مبادرات مجامع الفقه الإسلامي، وتقررُ المبادئَ التي يتحدَّث عنها هذا المؤتمرُ بنصِّها وحديثِها، وهذه قراراتٌ مُهمةٌ ومُلزمةٌ من حيث الفِكر؛ لأنها نابعةٌ من

الثقافةِ الإسلاميةِ، ومؤصَّلةٌ من القرآنِ والسُّنةِ، وليست للمُجاملةِ، وليست تقفُ دون أساسٍ تستندُ إليه.

هذه الخُلاصة التي أَحببتُ أن أُشيرَ إليها، والحديثُ عن كلِّ نقطةٍ من هذه النقاطِ يحتاجُ إلىٰ وقتٍ أطولَ.

أشكُركُم علىٰ حُسنِ استماعِكم، والسَّلامُ عليكم.